المُستهزئونَ في القرآنِ الكريمِ

"من سُخريةِ الماضي إلى حربِ الرُّموز"

◆ مراجعة: سامر صقر

■ خلاصة

في لحظة فارقة من الوعي الإيمانيِّ، يأتي هذا الكتابُ ليكشفَ عن الوجهِ الخفيِّ لظاهرةِ الاستهزاءِ بوصفِها أداةً رمزيةً فاعلةً في مواجهةِ الوحيِ، لا مجرّدَ فعلٍ هامشيٍّ عابرٍ. ومن خلالِ قراءةٍ معمّقةٍ لنصوصِ القرآنِ الكريمِ، يسبرُ (الدكتور محمّد مرتضى) أغوارَ السخريةِ بوصفِها سلوكًا نفسيًّا واجتماعيًّا معقّدًا، يكشفُ عن الرفضِ والخوفِ من التحوّلِ، ويُستخدمُ لتقويضِ الرموزِ الدينيةِ وتحطيمِ الهالةِ الروحيةِ من حولِها.

يُركّزُ المشروعُ على فهمِ عقليةِ المستهزئِ، من خلالِ تحليلِ بنيةِ الخطابِ الساخرِ، وموقفِه من التغييرِ، والآلياتِ التي يستخدمُها للتشويشِ على الحقيقةِ الرمزيةِ. فالسخريةُ، كما يصوّرُها القرآنُ الكريمُ، ليستْ مجرّدَ ردِّ فعلٍ آنيٍّ على الرسالةِ، وإنّما استراتيجيةٌ متكرّرةٌ يتبنّاها المستكبرونَ والعوامُّ والمثقفونَ المزيَّفونَ، في محاولةٍ للهروبِ من المواجهةِ الفكريةِ.

في هذا الكتابِ دعوةٌ صريحةٌ لاستعادةِ الوعيِ الرمزيِّ، في زمنٍ أُديرتْ فيه معاركُ الإيمانِ بالكلماتِ والصورِ والضحكاتِ، وهو محاولةٌ لفهمِ المستهزئِ بوصفِه خصمًا وكائنًا مأزومًا، يختبئُ وراءَ الاستهزاءِ؛ لأنَّه يفتقرُ إلى الشجاعةِ اللازمةِ للنظرِ في وجهِ الحقيقةِ.

الكلمات المفتاحية: الاستهزاءُ، السخريةُ، الوعيُ الرمزيُّ، الرموزُ الدينيةُ، مواجهةُ الوحيِ.

بطاقةُ الكتاب:

اسم الكتاب: المُستهزِئون في القرآن الكريم «من سخرية الماضي إلى حرب الرموز»
المؤلف: د. محمد محمود مرتضى
الناشر: مركز بَـــراثـــا للدراسات و البحوث، بيروت/ بغداد
الطبعة: ط١، ٢٠٢٥م / ١٤٤٦هـ.
الصَّفحاتُ: ١٦٤ صفحة مع فهرست المصادر والموضوعات.

قسَّم المؤلف كتابه إلى ثمانية فصول، كلٌّ منها يُغطِّي زاويةً مختلفةً من زوايا الاستهزاء، وردود الأفعال القرآنية عليها، وفقًا لما يأتي:

الفصلُ الأوّلُ: مفهومُ الاستهزاءِ في النصِّ القرآنيِّ

يقدّمُ هذا الفصلُ رؤيةً عميقةً لمفهومِ الاستهزاءِ في القرآنِ الكريمِ، بعيدًا عن التناولِ السطحيِّ الذي يختزلُه في مجرّدِ سخريةٍ لفظيةٍ. فالكاتبُ ينظرُ إلى الظاهرةِ من زوايا متعدّدة: لغويةٍ، ونفسيةٍ، واجتماعيةٍ، ورمزيةٍ، ليُظهرَ كيف يتعاملُ النصُّ القرآنيُّ مع الاستهزاءِ بوصفه ظاهرةً مركّبةً وخطيرةً.

تبدأُ الرحلةُ مع الجذرِ اللغويِّ (هـ ز أ)، الذي يحملُ دلالاتِ السخريةِ والتنقيصِ، لكنّ الكاتبَ لا يقفُ عند المعنى المعجميِّ، وإنّما يغوصُ في الأبعادِ النفسيةِ والاجتماعيةِ. فالاستهزاءُ ليس

مجرّدَ كلماتٍ ساخرةٍ، بل هو "عدوانٌ رمزيٌّ" موجَّهٌ ضدّ الخطابِ الإيمانيِّ، يحاولُ تفريغَه من مضمونِه وقدسيّتِه. وهو ما يتجلّى في مواقفِ الأممِ السابقةِ من أنبيائِها؛ حيثُ تحوّلَ الاستهزاءُ إلى أداةٍ لمقاومةِ التغييرِ الذي جاءتْ به الرسالاتُ.

اللافتُ في التحليلِ، هو الربطُ بين الاستهزاءِ والبنى الاجتماعيةِ والطبقيةِ. فالسخريةُ من الأنبياءِ عليهم السلام وأتباعِهم، كانت تعبيراً عن رفضٍ عميقٍ للتغييرِ الذي يهدّدُ مصالحَ النخبِ وهيمنتَها. كما في قصةِ نوحٍ عليه السلام؛ حيثُ تحوّلت السفينةُ ـ رمزُ النجاةِ الإلهيةِ ـ إلى مادةٍ للسخريةِ من قبلِ الملأ الذين رأوا في الدعوةِ الجديدةِ تهديدًا لمركزِهم الاجتماعيِّ.

ولا يغفلُ الكاتبُ عن البُعدِ النفسيِّ، فيُظهرُ كيف يصبحُ الاستهزاءُ آليةً دفاعيةً للهروبِ من مواجهةِ الحقِّ، وتحويلِ الحقيقةِ الجديدةِ إلى مجرّدِ نكتةٍ أو أسطورةٍ. وهو ما نجده في موقفِ المشركينَ من النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم؛ حيثُ حاولوا تقويضَ رسالتِه عبرَ السخريةِ من شخصِه وأتباعِه قبلَ مناقشةِ أفكارِه.

والقرآنُ من جانبِه لم يتعاملْ مع هذه الظاهرةِ بسلبيةٍ، بل قدّم موقفًا واضحًا يعكسُ عمقَ الرؤيةِ القرآنيةِ. فمن ناحيةٍ، كشفَ عن الخطورةِ الكامنةِ في الاستهزاءِ بوصفه أداةً لهدمِ القيمِ الرمزيةِ للدعوةِ. ومن ناحيةٍ أخرى، قدّم نماذجَ للتعاملِ معها، بين التجاهلِ أحيانًا، والردِّ الرمزيِّ أحيانًا أخرى.

ختامًا، ينجحُ الفصلُ في تقديمِ قراءةٍ ثريّةٍ تُظهرُ الاستهزاءَ ليس بوصفه ظاهرةً لفظيةً عابرةً، بل آليةً مقاومةً رمزيةً، تعكسُ صراعًا وجوديًّا بين الحقِّ والباطلِ. قراءةٌ تُثري فهمَنا للخطابِ القرآنيِّ، وطرقِ تعاملِه مع التحدياتِ التي واجهتْ الدعوةَ عبرَ التاريخِ.

الفصلُ الثانيُ: البنيةُ النفسيةُ والعقليةُ للمستهزئِ

يقدّمُ هذا الفصلُ تحليلاً متكاملاً لظاهرةِ الاستهزاءِ بالدينِ والقيمِ المقدّسةِ؛ حيثُ يتجاوزُ التحليلُ السطحيَّ للسلوكِ ليغوصَ في الأعماقِ النفسيةِ والاجتماعيةِ التي تُنتجُ هذا الموقفَ. ومن خلالِ

منهجيةٍ قرآنيةٍ رصينةٍ، يكشفُ الكاتبُ عن البنى التحتيةِ المعقّدةِ التي تقفُ خلفَ سلوكِ الاستهزاءِ، مبرزًا كيف يتحوّلُ هذا السلوكُ من مجرّدِ ردِّ فعلٍ عابرٍ، إلى أداةٍ هيمنةٍ وتعبيرٍ عن أزمةٍ وجوديةٍ.

في التأسيسِ النظريِّ، ينطلقُ الكاتبُ من حقيقةٍ، أنّ الاستهزاءَ لا ينبعُ من فراغٍ، بل هو تعبيرٌ عن صراعٍ داخليٍّ بين الذاتِ والآخرِ. فالمستهزئُ، في الحقيقةِ، يواجهُ تهديدًا وجوديًّا لحقيقته الذاتيةِ، ما يدفعُه إلى تبنّي موقفِ الهجومِ باعتباره أفضلَ وسيلةِ دفاعٍ. وهذا ما يفسّرُ تحوّلَ السخريةِ إلى آليةٍ نفسيةٍ معقّدةٍ، تحاولُ حمايةَ الذاتِ من مواجهةِ الحقائقِ المزعزعةِ لليقينياتِ الراسخةِ.

على المستوى النفسيِّ، يكشفُ التحليلُ عن طبقتينِ رئيستينِ في بنيةِ المستهزئِ: الأولى تتعلّقُ بالاستكبارِ والغرورِ؛ حيثُ يرفضُ الفردُ الخضوعَ للحقيقةِ؛ لأنّها تتناقضُ مع صورته المثاليةِ عن ذاته. والثانيةُ ترتبطُ بالخوفِ والقلقِ الوجوديِّ؛ حيثُ تصبحُ السخريةُ قناعًا يُخفي الهشاشةَ الداخليةَ. وهذا ما يتجلّى بوضوحٍ في النموذجِ القرآنيِّ لـ (إبليسَ) الذي فضّلَ العصيانَ على الاعترافِ بالمساواةِ.

أمّا على المستوى الاجتماعيِّ، فيُبرزُ التحليلُ كيف يتحوّلُ الاستهزاءُ من فعلٍ فرديٍّ، إلى ظاهرةٍ جماعيةٍ تُسهمُ في إنتاجِ خطابِ الهيمنةِ. فالسخريةُ هنا، لا تقتصرُ على التعبيرِ عن الرأيِ، بل تتحوّلُ إلى أداةِ ضبطٍ اجتماعيٍّ تمنعُ انتشارَ الأفكارِ الجديدةِ. وهذا ما يفسّرُ التركيزَ القرآنيَّ على فئةِ "الملأ" الذين كانوا يستخدمون السخريةَ كوسيلةٍ للحفاظِ على امتيازاتهم ومواقعهم الاجتماعيةِ: ﴿**وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**﴾ [الحجر: ١١].

يتميّزُ التحليلُ بعمقه المعرفيِّ من خلالِ ربطه بين الأبعادِ الثلاثةِ: النفسيِّ والاجتماعيِّ والمعرفيِّ. فضعفُ البصيرةِ المعرفيةِ، كما يوضّحُ الكاتبُ، لا يقلُّ خطورةً عن الكِبْرِ النفسيِّ، حيثُ يؤدّي الجهلُ بالحقائقِ إلى تبنّي مواقفَ هجوميةٍ بدلًا من الحوارِ الموضوعيِّ. وهذا ما يفسّرُ ظاهرةَ التهكّمِ بالدينِ دون فهمٍ حقيقته، كما في حالاتٍ كثيرةٍ معاصرةٍ.

يقدّمُ الفصلُ رؤيةً متوازنةً للتعاملِ مع ظاهرةِ الاستهزاءِ؛ حيثُ يرفضُ منطقَ الردِّ بالمثلِ، ويؤكّدُ على أهميّةِ الفهمِ العميقِ لجذورِ الظاهرةِ. فالقرآنُ الكريمُ، كما يبيّنُ التحليلُ، لم يُعالجِ السخريةَ بالسخريةِ، لكنّه كشفَ عن جذورِها النفسيةِ والاجتماعيةِ، معطيًا نموذجًا راقيًا في المواجهةِ بالحكمةِ

والموعظةِ الحسنة. وتبقى قيمةُ هذا الفصلِ في كونِه يقدّمُ تحليلاً تاريخيًّا، ويضعُ إطارًا نظريًّا يمكنُ من خلالِه فهمُ أشكالِ الاستهزاءِ المعاصرةِ بأنواعِها المختلفةِ، ما يجعلُه مرجعًا مهمًّا لفهمِ التفاعلِ بين الدينِ والمجتمعِ، في ظلِّ التحدياتِ الفكريةِ الراهنةِ.

الفصلُ الثّالثُ: المُستهزِئونَ في قَصصِ الأنبياءِ عليهم السلام

يقدِّمُ هذا الفصلُ تحليلاً عميقًا للسُّخريةِ بوصفها أداةً رمزيّةً واجتماعيةً، استُخدِمَتْ في مواجهةِ الأنبياءِ عليهم السلام عبرَ التاريخِ، معَ التركيزِ على نماذجَ مختلفةٍ من قصصِ الأنبياءِ عليهم السلام في القرآنِ الكريمِ. والكاتبُ لا يكتفي بسردِ الأحداثِ، بل يَغوصُ في الأبعادِ النفسيّةِ والاجتماعيّةِ والسياسيّةِ للسُّخريةِ، وكيفَ تحوَّلَتْ إلى وسيلةٍ دفاعيّةٍ لقَمعِ الحقِّ وإبطالِ تأثيرِه.

ويَسعى الكاتبُ إلى الكشفِ عن السُّخريةِ لا بوصفها مجرَّدَ ردِّ فعلٍ عابرٍ، بل ظاهرةً مُعقَّدةً تُعبِّرُ عن الخوفِ من التغييرِ، وعن رفضٍ عميقٍ للحقِّ حينَ يُهدِّدُ المصالحَ والسُّلطةَ والهويّةَ الجمعيّةَ. فالسُّخريةُ ليستْ ضحكًا بريئًا، وإنّما هي آليّةٌ لمقاومةِ الغيبِ، ومحاولةٌ لتفريغِ الرمزيّةِ النبويّةِ من قوّتِها قبلَ أن تَترسَّخَ في الوعيِ العامِّ.

ومن خلالِ تحليلِ مواقفِ قومِ نُوحٍ وفرعونَ وقُريشٍ وغيرِهم، يُبيِّنُ الكاتبُ أنّ السُّخريةَ كانتْ أداةً للسلطةِ وللمجتمعِ لإضعافِ الرسالةِ دونَ مواجهتِها مباشرةً، فهي تُحوِّلُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم إلى موضوعٍ للضحكِ بدلاً من أن يكونَ مَحطَّ تأمُّلٍ، وتُبدِّدُ جديّةَ الدعوةِ عبرَ تحويلِها إلى مهزلةٍ: ﴿**وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**﴾ [الحجرُ: ١١].

لكنَّ القرآنَ، من ناحيةٍ أخرى، يكشفُ هشاشةَ هذه السُّخريةِ؛ لأنَّها تَنقلبُ في النِّهايةِ على أصحابِها حينَ يَتحقَّقُ وَعْدُ اللهِ، فيُصبِحُ الذينَ سَخِروا هُم أنفسُهم موضوعًا للسُّخريةِ الكَونيّةِ عندما يَحِلُّ بهمُ العذابُ.

كما يلفتُ هذا الفصلُ إلى أنّ السُّخريةَ تختلفُ باختلافِ السِّياقِ: فسُخريةُ قريشٍ كانتْ هجومًا

على شخصِ النبيّ ﷺ لتفريغِ رسالتِه من مضمونها، ﴿**وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ**﴾ [الأنبياءُ: ٣٦]، بينما كانتْ سُخريةُ بَني إسرائيلَ مُماطلةً وتحايُلًا على التكليفِ الإلهيِّ، أمّا سُخريةُ فرعونَ فكانتْ جزءًا من خطابٍ سُلطويٍّ يهدفُ إلى الحفاظِ على الهيمنةِ. وفي جميعِ الحالاتِ، تبقى السُّخريةُ تعبيرًا عن عَجْزٍ داخليٍّ، ومحاولةً يائسةً لمواجهةِ الحقيقةِ دونَ الاعترافِ بها.

وينتهي الفصلُ بإبرازِ أنّ السُّخريةَ ـ رغمَ قوّتِها الظاهرةِ ـ لم تَنجحْ يومًا في إيقافِ الحقِّ، بل كانتْ دليلًا على ضَعفِ مَنِ استَخدَمَها. فإذا ظهرتِ الحقيقةُ سَقَطَتْ أدواتُ التهريجِ، وبَقِيَ الضاحكونَ وحدَهم في مواجهةِ مصيرِهم.

الفصلُ الرّابعُ: أدواتُ الاستهزاءِ في القرآنِ الكريمِ

يتناولُ هذا الفصلُ ظاهرةَ الاستهزاءِ بالدعواتِ الإلهيّةِ من منظورٍ تحليليٍّ عميقٍ، كاشفًا طبقاتِها النفسيّةِ والاجتماعيّةِ التي تَظهَرُ بوصفِها ردَّ فعلٍ على التغييرِ الجذريِّ الذي تَحملُه الرسالاتُ السماويّةُ. فالسُّخريةُ هنا ليستْ مجرَّدَ تعبيرٍ عن رفضٍ، بل تُشكِّلُ نظامًا مُعقَّدًا من آليّاتِ الدِّفاعِ النفسيِّ والاجتماعيِّ ضدَّ الحقائقِ المُزعزِعةِ للوضعِ القائمِ.

وتنبعُ أهميّةُ هذا التحليلِ من كونِه يُسلِّطُ الضوءَ على البنيةِ التحتيةِ للسُّخريةِ بصفتِها ظاهرةً؛ حيثُ تَتحوَّلُ من ردِّ فعلٍ عَفويٍّ إلى أداةٍ منهجيّةٍ في الصِّراعِ بينَ الحقِّ والباطلِ. وتبدأُ الصورةُ بالتَّشكُّلِ، عندما يَتحوَّلُ العَجزُ عن المواجهةِ الفكريّةِ إلى هجومٍ على حاملي الرسالةِ، في محاولةٍ لاختزالِ الحقائقِ الكبرى في تفاصيلَ شكليّةٍ صالحةٍ للتندرِ والاستهانةِ.

وتتجلّى براعةُ التحليلِ في كشفِ مستوياتٍ متعدّدةٍ للاستهزاءِ: بدءًا من السُّخريةِ المباشرةِ من المظهرِ الخارجيِّ، مرورًا بالتهكُّمِ غيرِ المباشرِ عبرَ الإيماءاتِ والكلماتِ المزدوجةِ، وصولًا إلى التحريفِ الرمزيِّ للغةِ ذاتِها. وكلُّ مستوى من هذه المستوياتِ، يُمثِّلُ مرحلةً أشدَّ تعقيدًا في الصِّراعِ؛ حيثُ ينتقلُ من المواجهةِ العلنيّةِ إلى الحربِ الخفيّةِ على المفاهيمِ والرُّموزِ.

والأكثرُ إثارةً في هذا السِّياق هو كيفيّةُ تحوُّل السُّخرية من فعلٍ فرديٍّ إلى ظاهرةٍ جماعيّة تكتسبُ قوّتَها من التكرارِ والتَّداوُلِ في الفضاءِ العامِّ، بما يجعلُها أداةَ ضغطٍ اجتماعيٍّ فاعلةً قادرةً على تشكيلِ الوعيِ الجمعيِّ وتوجيهِهِ ضدَّ القِيَمِ الجديدةِ دونَ حاجةٍ إلى حججٍ عقلانيّةٍ.

ويَبرزُ البُعدُ النفسيُّ العميقُ حينَ تُحوَّلُ الكلماتُ المقدَّسةُ نفسُها إلى أدواتٍ للاستهزاءِ، في عمليّة تُشبهُ اغتصابَ الرُّموزِ وتحويلَها ضدَّ ذاتِها؛ وهي آليّةٌ لا تقتصرُ على التشكيكِ في الرسالةِ، بل تَمتدُّ إلى تقويضِ الأساسِ اللغويِّ الذي تقومُ عليه، مما يجعلُها أخطرَ أشكالِ المقاومةِ الرمزيّةِ.

ويُقدِّمُ الفصلُ رؤيةً شاملةً تُبيِّنُ أنّ القرآنَ لم يَقِفْ عند حدِّ تحريمِ هذه الممارساتِ، بل تَعامَلَ معها بوصفها ظواهرَ قابلةً للتحليلِ والفهمِ، مُقدِّمًا أدواتٍ للتعرُّفِ إلى آليّاتِها الخفيّةِ. وهذا المنهجُ لا يقتصرُ على الماضي، بل يُتيحُ إطارًا لفهمِ الصِّراعاتِ الفكريّةِ المعاصرةِ؛ حيثُ تتجدَّدُ أشكالُ الاستهزاءِ بأساليبَ تُناسِبُ كُلَّ عصرٍ.

الفصلُ الخامسُ: الرَّدُّ القُرآنيُّ على المُستهزِئينَ

في هذا الفصلِ، أرادَ المؤلِّفُ أن يكشِفَ النِّقابَ عن الرؤيةِ القُرآنيةِ العميقةِ لظاهرةِ الاستهزاءِ، بوصفه منظومةً متكاملةً لفهمِ ديناميكياتِ الصراعِ بينَ الحقِّ والباطلِ. لا يُعالِجُ القرآنُ هنا السُّخريةَ باعتبارها مجرَّدَ كلماتٍ جارحةٍ، وإنَّما يُحلِّلُها بصفتها ظاهرةً مُعقَّدةً تنطوي على أبعادٍ نفسيةٍ واجتماعيةٍ وحضاريةٍ.

يبدأُ الكاتبُ بتشريحِ البنيةِ النفسيةِ للسُّخريةِ، مُبرزًا كيفَ تتحوَّلُ إلى سلاحٍ نفسيٍّ عندما يَعجزُ الخصمُ عن المواجهةِ العقلانيةِ. إنَّها آليةٌ دفاعيةٌ يَلجأُ إليها الضُّعفاءُ لإخفاءِ عَجزِهم الفكريِّ؛ حيثُ يتحوَّلُ المضمونُ إلى هجومٍ على الشكلِ، والحوارُ الجادُّ إلى سخريةٍ مُفرَّغةٍ من المضمونِ. هذا التَّحليلُ النَّفسيُّ العميقُ، يكشِفُ أنَّ الاستهزاءَ ليسَ تعبيرًا عن القوَّةِ، بل إعلانًا ضمنيًّا عن الإفلاسِ الفكريِّ.

وعلى المستوى الاجتماعيِّ، يتتبَّعُ الكاتبُ كيفَ تتحوَّلُ السُّخريةُ من فعلٍ فرديٍّ إلى ظاهرةٍ مجتمعيةٍ خطيرةٍ، تنتشرُ عبرَ منابرِ التَّواصُلِ التَّقليديةِ والحديثةِ. إنَّها لا تقتصرُ على إيذاءِ المشاعرِ الفرديةِ، بل تُصبحُ أداةً لتشكيلِ الوعيِ الجمعيِّ؛ حيثُ تتحوَّلُ الحقائقُ إلى موضوعاتٍ للسُّخريةِ، والمقدَّساتُ إلى مادَّةٍ للتَّهكُّمِ. هذا الانتقالُ من الفرديِّ إلى الجمعيِّ هو ما يجعلُ السُّخريةَ ظاهرةً تحتاجُ لمواجهةٍ استراتيجيةٍ، لا لمجرَّدِ ردودِ أفعالٍ.

أمَّا المنهجُ القرآنيُّ في المواجهةِ، كما يُبيِّنُ الكاتبُ، فيتَّسمُ بالحكمةِ والتَّدرجيةِ؛ فهو يبدأُ بالصَّبرِ الاستراتيجيِّ لنزعِ فتيلِ العُدوانِ اللفظيِّ، ثمَّ ينتقلُ إلى التَّفكيكِ المنطقيِّ للخطابِ السَّاخرِ، ليصلَ أخيرًا إلى المواجهةِ الحاسمةِ عندَ تَجاوزِ الخطوطِ الحمراءِ. هذا المسارُ المتدرِّجُ يجمعُ بينَ المرونةِ في الأسلوبِ والثباتِ في المبدأِ؛ بينَ الصَّبرِ على الأذى والحَسمِ في المواقفِ المصيريةِ.

والأكثرُ إثارةً في هذا التَّحليلِ هو كيفَ يُحوِّلُ القرآنُ السُّخريةَ من أداةِ هدمٍ إلى فُرصةٍ لبناءِ الوعيِ. فبدلاً من الانجرارِ إلى معاركَ هامشيةٍ، يُصبحُ الرَّدُّ على المُستهزئينَ مشروعًا تربويًّا مُتكاملاً يُعزِّزُ المناعةَ الفكريةَ، ويُصقلُ الشخصيةَ الإيمانيةَ، ويُؤسِّسُ لوعيٍ جمعيٍّ قادرٍ على تمييزِ الحقِّ من الباطلِ. إنَّهُ تحويلٌ للمواجهةِ من دائرةِ ردِّ الفعلِ إلى فضاءِ البناءِ الحضاريِّ. قالَ تعالى: ﴿**وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ**﴾ [الأنبياء: ٤١].

هذه الرؤيةُ الشاملةُ، كما يُوضِّحُ الكاتبُ، تُقدِّمُ إطارًا عمليًّا للتعاملِ مع أشكالِ الاستهزاءِ المعاصرةِ؛ من السُّخريةِ في وسائلِ الإعلامِ إلى التَّنمُّرِ الإلكترونيِّ. إنَّها نموذجٌ مُتكاملٌ يجمعُ بينَ العُمقِ في التَّحليلِ والدِّقةِ في التَّطبيقِ، وبينَ الفَهمِ النَّفسيِّ للأفرادِ والإدراكِ الاجتماعيِّ للظواهرِ، ليُقدِّمَ حلاًّ جذريًّا لأحدِ أقدمِ التَّحدياتِ التي تُواجهُ القِيَمَ والمبادئَ عبرَ التَّاريخِ.

الفصلُ السَّادسُ: الاستهزاءُ أداةُ إفسادٍ رمزيٍّ

في هذا الفصلِ، ينقلُنا الكاتبُ إلى عُمقِ الرؤيةِ القُرآنيةِ لظاهرةِ الاستهزاءِ؛ حيثُ يتجاوزُ التَّحليلَ السَّطحيَّ ليغوصَ في الأبعادِ النفسيةِ والاجتماعيةِ والحضاريةِ لهذه الآفةِ. فالاستهزاءُ ليسَ مجرَّدَ

كلماتٍ عابرةٍ تُقالُ في لحظةِ غضبٍ أو سُخريةٍ، بل هو أداةٌ خطيرةٌ لإفسادِ القِيَمِ وتشويهِ الحقائقِ؛ حيث تعملُ على تفكيكِ البُنى الرمزيةِ للمجتمعِ وتقويضِ أُسُسِ الإيمانِ.

ويتعمَّقُ الكاتبُ في تحليلِ الأدواتِ الرمزيةِ للاستهزاءِ، وكيفَ يتمُّ توظيفُ اللغةِ والإيماءاتِ والمواقفِ اليوميةِ في عمليةِ التَّشويهِ المنهجيِّ. فالاستهزاءُ لا يقتصرُ على الكلماتِ المباشرةِ، بل يتَّخذُ أشكالًا أكثرَ خُبثًا مثلَ النُّكاتِ المُبطَّنةِ، والإشاراتِ غيرِ المباشرةِ، والتَّلميحاتِ التي تزرعُ الشَّكَّ دون أن تُعلنَ عن نفسِها صراحةً. تعملُ هذه الأدواتُ على تحويلِ المقدَّساتِ إلى موضوعاتٍ للسُّخريةِ، وإفراغِ الرموزِ الدينيةِ من مضمونِها، وجعلِ الجِديَّةِ الدينيةِ تبدو باعتبارِها سذاجةً أو تخلُّفًا.

والأخطرُ من ذلكَ كلّه، كما يُبيِّنُ هذا الفصلُ، هو تحوُّلُ السُّخريةِ من فعلٍ فرديٍّ إلى ظاهرةٍ اجتماعيةٍ تنتشرُ عبرَ وسائلِ التَّواصُلِ المختلفةِ. ففي العصرِ الحديثِ، أصبحتْ منصَّاتُ التَّواصُلِ الاجتماعيِّ ساحاتٍ خصبةً لانتشارِ ثقافةِ الاستهزاءِ؛ حيثُ تتحوَّلُ المقدَّساتُ إلى موضوعاتٍ للنُّكاتِ، والشخصياتُ الدينيةُ إلى شخصياتٍ كاريكاتوريةٍ، والقِيَمُ الخُلُقيةُ إلى دليلٍ على التَّخلُّفِ. لا تقتصرُ هذه الظاهرةُ لا تقتصرُ على إيذاءِ المشاعرِ الفرديةِ، وإنَّما تعملُ على تشكيلِ وعيٍ جمعيٍّ مُشوَّهٍ؛ حيثُ تُصبحُ السُّخريةُ لغةً مشتركةً، والاستهزاءُ أسلوبَ حياةٍ.

ويربطُ المؤلِّفُ هذه الظاهرةَ بالبعدِ الشيطانيِّ؛ حيثُ يُظهرُ كيفَ أنَّ الاستهزاءَ هو استراتيجيةٌ إبليسيةٌ قديمةٌ. فإبليسُ لم يُحاربْ آدمَ بالعنفِ المباشرِ، بل بالاستهزاءِ والتَّحقيرِ "أنا خيرٌ منه". تتكرَّرُ هذه الاستراتيجيةُ عبرَ التاريخِ؛ حيثُ يعملُ المُستهزئونَ على تقويضِ الطاعةِ والتَّسليمِ لله باستخدامِ الآلياتِ نفسِها: التَّهكُّمِ، والتَّحقيرِ، والتَّشكيكِ في القِيَمِ. يصفُ القرآنُ ما كانَ يتعرَّضُ له نبيُّ اللهِ نوحٌ عليه السلام قائلًا: ﴿**وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ**﴾ [هود: ٣٨].

ويُقدِّمُ النَّصُّ الرؤيةَ القُرآنيةَ المُتكاملةَ لمواجهةِ هذه الظاهرةِ. فالقرآنُ لا يَدعو إلى العنفِ أو الانفعالِ، بل إلى الحِكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، وإعادةِ بناءِ المناعةِ الفكريةِ. إنَّهُ يَدعو إلى مواجهةِ الاستهزاءِ بالفكرِ الرَّصينِ، والرَّدِّ على السُّخريةِ بالحجَّةِ الدَّامغةِ، ومُقاومةِ التَّشويهِ بتثبيتِ الحقائقِ.

كما يُؤكِّدُ على أهميَّةِ بناءِ الشخصيةِ الإيمانيةِ القويَّةِ التي لا تتأثَّرُ بسُخريةِ الساخرينَ، ولا تنحني لتهكُّمِ المستهزئينَ.

وفي النِّهايةِ، يُقدِّمُ الكاتبُ رؤيةً مُتكاملةً تجمعُ بين التَّحليلِ النَّفسيِّ للفردِ، والفَهمِ الاجتماعيِّ للظاهرةِ، والرؤيةِ الحضاريةِ للمواجهةِ. إنَّها دعوةٌ لإعادةِ اكتشافِ المنهجِ القُرآنيِّ في التَّعاملِ مع التَّحدياتِ المعاصرةِ؛ حيثُ تُصبحُ المواجهةُ الفكريةُ مشروعًا تربويًّا مُتكاملًا، والرَّدُّ على الاستهزاءِ فُرصةً لتعميقِ الإيمانِ وترسيخِ القِيَمِ.

الفصلُ السّابعُ: السُّخريةُ الحديثةُ ـ حربُ الرُّموزِ في العصرِ الرَّقميِّ.

يغوصُ هذا الفصلُ في عمقِ واحدةٍ من أكثرِ الظواهرِ الثقافيةِ تعقيدًا وخطورةً في عصرِنا الحاليِّ؛ حيثُ تتحوَّلُ السخريةُ من مجردِ وسيلةِ تعبيرٍ فرديةٍ إلى أداةٍ منهجيةٍ محكمةِ الصياغةِ، تهدفُ إلى إعادةِ تشكيلِ الوعيِ الجمعيِّ وتفكيكِ المنظومةِ القيميةِ للمجتمعاتِ.

يقدِّمُ الكاتبُ هنا تحليلًا شاملًا يربطُ بين الأبعادِ التاريخيةِ والسوسيولوجيةِ والسيميائيةِ لهذه الظاهرةِ.

في القسمِ الأوّلِ، يتتبَّعُ المؤلِّفُ التحوّلَ الجذريَّ الذي شهده مفهومُ السخريةِ عبر العصورِ؛ من ممارسةٍ قبليةٍ تقومُ على العداءِ المباشرِ والمكشوفِ، إلى صناعةٍ ثقافيةٍ معقَّدةٍ تخضعُ لآلياتِ إنتاجٍ وتوزيعٍ وتسويقٍ دقيقةٍ.

هذا التحوّلُ لم يكن طفرةً مفاجئةً؛ بل جاء نتيجةَ تراكماتٍ تاريخيةٍ ارتبطت بصعودِ الرأسماليةِ الثقافيةِ وثورةِ الاتصالاتِ الرقميةِ.

يكشفُ التحليلُ كيف أصبحت السخريةُ سلعةً ثقافيةً تدرُّ أرباحًا طائلةً؛ حيثُ تتحوَّلُ الرموزُ الدينيةُ إلى مادةٍ خامٍ في خطِّ إنتاجٍ لا ينتهي من المسلسلاتِ والأفلامِ والبرامجِ التي تقدِّمُ قراءاتٍ هزليةً للمقدَّساتِ.

وتكمنُ المفارقةُ الصادمةُ في آليةِ التبريرِ التي تعملُ على تسويغِ هذه الظاهرةِ؛ حيثُ يجري تغليفُها بشعاراتٍ جذابةٍ مثل «حريةُ الإبداعِ» و«النقدُ الاجتماعيُّ»، بينما يتمُّ تحييدُ أيِّ صوتٍ معارضٍ بتهمٍ جاهزةٍ مثل «التعصّبِ» و«الرجعيةِ».

في القسمِ الثاني، يناقشُ الفصلُ الآلياتِ السيميائيةَ التي تعتمدُ عليها هذه الظاهرةُ؛ حيثُ يشرحُ كيف تعملُ تقنياتٌ مثل التكرارِ البصريِّ، والتشويهِ الرمزيِّ على إفراغِ المقدَّسِ من دلالاتِه الأصليةِ.

ومن خلالِ تحليلٍ دقيقٍ للخطابِ الإعلاميِّ المعاصرِ، يبيِّنُ الكاتبُ كيف يجري تحويلُ الشعائرِ الدينيةِ إلى مجردِ مشاهدَ كوميديةٍ، والشخصياتِ الروحيةِ إلى نماذجَ كاريكاتوريةٍ، والنصوصِ المقدَّسةِ إلى مجردِ مادةٍ للسخريةِ.

لكنَّ الفصلَ لا يكتفي بالتشخيصِ، وإنّما يقدِّم رؤيةً نقديةً عميقةً للخلفياتِ الأيديولوجيةِ لهذه الظاهرةِ.

يوضِّحُ كيف أنّ ما يُقدَّمُ على أنّه «فكاهةٌ بريئةٌ» هو في الحقيقةِ جزءٌ من استراتيجيةٍ أوسعَ للهيمنةِ الثقافيةِ؛ تهدفُ إلى إعادةِ صياغةِ الوعيِ الجمعيِّ وفقَ رؤيةٍ أحاديةٍ تخدمُ مصالحَ مراكزِ القوى العالميةِ.

والنموذجُ الأكثرُ وضوحًا هنا هو ازدواجيةُ المعاييرِ؛ حيثُ يجري التسامحُ مع السخريةِ من بعضِ الرموزِ الدينيةِ، بينما يجري تجريمُ المساسِ برموزٍ أخرى، تحتَ مسمَّياتٍ مثل «خطابِ الكراهيةِ».

يختتمُ الفصلُ بطرحِ رؤيةٍ قرآنيةٍ متكاملةٍ لمواجهةِ هذه التحدياتِ، لا تقومُ على ردودِ الأفعالِ الانفعاليةِ؛ بل على استراتيجيةٍ ذكيةٍ تجمعُ بين الحكمةِ والثباتِ.

ويقدِّمُ المؤلِّفُ هنا نموذجًا متكاملاً يستلهمُ من القرآنِ الكريمِ وسيرةِ النبيِّ مُحَمَّد ﷺ في التعاملِ مع السخريةِ؛ حيثُ يجمعُ بين الحفاظِ على هيبةِ المقدَّساتِ من ناحيةٍ، وبين الحوارِ الهادئِ والبنّاءِ من ناحيةٍ أخرى.

يُعَدُّ هذا الفصلُ رحلةً فكريةً شاملةً تبدأ من التشخيصِ الدقيقِ للمشكلةِ، مرورًا بتحليلِ جذورِها

التاريخيةِ والفكريةِ، وصولاً إلى طرحِ الحلولِ العمليةِ.

وبأسلوبٍ يجمعُ بين الدقةِ العلميةِ والسلاسةِ الأدبيةِ، ينجحُ الكاتبُ في تقديمِ عملٍ موسوعيٍّ يضيءُ واحدةً من أخطرِ القضايا وأدقِّها التي تواجهُ الأمةَ في عصرِ العولمةِ والثورةِ الرقميةِ.

الفصلُ الثّامنُ: نحو وعيٍ قرآنيٍّ بالمقدَّسِ ـ تثبيتُ الرَّمزيّةِ ومواجهةُ الاستهزاءِ.

في هذا الكتابِ الفكريِّ المتميّز «نحو وعيٍ قرآنيٍّ بالمقدَّسِ ـ تثبيتُ الرَّمزيّةِ ومواجهةُ الاستهزاءِ»، ينسجُ الكاتبُ رؤيةً عميقةً تُعيدُ اكتشافَ مفهومِ المقدَّسِ في الخطابِ القرآنيِّ، ليس بوصفه فكرةً غَيْبيةً مجرّدةً، بل حقيقةً حيّةً تتدفَّقُ في وجدانِ المؤمنِ، وتتشكَّلُ عبر رموزٍ تلامسُ حياتَه اليوميةَ.

يقدِّمُ المؤلِّفُ القرآنَ بوصفه نظامًا رمزيًّا متكاملاً؛ حيثُ يتحوَّلُ المقدَّسُ من فكرةٍ نظريةٍ إلى قوَّةٍ فاعلةٍ في الواقعِ عبرَ شعائرَ مثل الصلاةِ والحجِّ، أو عبرَ شخصياتِ الأنبياءِ ﷺ التي تتحوَّلُ إلى نماذجَ خُلُقيةٍ خالدةٍ.

فالصلاةُ ـ مثلاً ـ ليست مجرّدَ حركاتٍ طقسيةٍ، بل هي جسرٌ رمزيٌّ يربطُ العبدَ بالخالقِ، ويعيدُ تشكيلَ وعيِه بالزمانِ والمكانِ.

لكنَّ الكتابَ لا يقتصرُ على البعدِ التأسيسيِّ، بل ينطلقُ إلى مواجهةِ أحدِ أخطرِ التحدياتِ المعاصرةِ: الحربِ الرمزيةِ على المقدَّسِ؛ إذ لم تَعُدِ الهجماتُ تقتصرُ على النقدِ المباشرِ، وإنّما تحوَّلت إلى تفكيكٍ خفيٍّ عبرَ السخريةِ والفنِّ والإعلامِ، ما يُفرغُ الرموزَ الدينيةَ من دلالاتِها، ويحوِّلُها إلى مجردِ أدواتٍ استهلاكيةٍ أو موضوعاتٍ هزليةٍ.

وفي مواجهةِ هذا التحدي، يدعو الكاتبُ إلى الانتقالِ من ردودِ الفعلِ العاطفيةِ إلى استراتيجيةٍ ثقافيةٍ شاملةٍ تعيدُ بناءَ الوعيِ بالمقدَّسِ عبرَ الخطابِ والفنِّ والتربيةِ؛ بحيثُ يُصبحُ الرمزُ الدينيُّ

قويًّا بذاته، قادرًا على الصمودِ أمامَ محاولاتِ التشويهِ ـ ليس بالمنعِ والقمعِ، وإنما بعمقِ حضورِه في العقلِ والقلبِ معًا.

خاتمة

يُمثِّلُ هذا الكتابُ نداءً لتجديدِ الرؤيةِ الإسلاميةِ للمقدَّسِ في عصرٍ يحاولُ فيه بعضُهم طمسَ قداستِه، وهو إسهامٌ جريءٌ يُعيدُ الاعتبارَ لقوَّةِ الرمزِ في تشكيلِ الهويةِ والإيمانِ.

ومن أهمِّ ما يُميِّزُه:

١. العُمقُ التحليليُّ للرمزِ القرآنيِّ: لا يكتفي الكتابُ بتفسيرِ المقدَّسِ بوصفه فكرةً مجرَّدةً؛ بل يقدِّمُه نسقًا رمزيًّا حيويًّا يتجلّى في التشريعاتِ والشعائرِ والقصصِ القرآنيةِ، ما يجعلُه دراسةً فريدةً تربطُ بين التفسيرِ والفلسفةِ وعلمِ الرموزِ.

٢. الربطُ بين القديمِ والحديثِ في مواجهةِ الاستهزاءِ: يعرضُ الكتابُ كيفَ تعاملَ القرآنُ مع السخريةِ تاريخيًّا، ثم ينقلُ هذه الرؤيةَ إلى العصرِ الحديثِ، محلِّلًا أدواتِ الحربِ الرمزيةِ المعاصرةِ (كالكاريكاتيرِ، والميمزِ، والأفلامِ...إلخ)؛ ما يجعلُه مرجعًا شاملًا لفهمِ استمراريةِ التحدي عبرَ العصورِ.

٣. رؤيةٌ استراتيجيةٌ (لا ردَّ فعلٍ) لمواجهةِ التشويهِ: حيثُ يتجاوزُ الكتابُ الدعوةَ إلى الغضبِ أو المنعِ القانونيِّ، ويقدِّمُ خطةً عمليةً لـ:

أ. إعادةِ بناءِ الوعيِ بالمقدَّسِ عبرَ التربيةِ والفنونِ.

ب. تحصينِ المجتمعِ نفسيًّا ضدَّ السخريةِ بتعميقِ الفهمِ الرمزيِّ.

ج. إنتاجِ خطابٍ ثقافيٍّ جذّابٍ ينافسُ الخطاباتِ المعاديةَ.

٤. اللغةُ الجذّابةُ والمنهجيةُ الواضحةُ: يجمعُ بين الدقّةِ الأكاديميةِ وسلاسةِ الأسلوبِ، ما يجعلُه مناسبًا للقارئِ العاديِّ والمتخصّصِ. ويعتمدُ أمثلةً قرآنيةً وتاريخيةً ومعاصرةً لتوضيحِ الأفكارِ، كتحليلِه لـ «رمزيةِ الصلاةِ» أو «دورِ الفنِّ في تشويهِ المقدَّسِ».

أهميّةُ الاطلاعِ التفصيليِّ على هذا الكتابِ؟

إنّ القراءةَ العامةَ والمقتضبةَ له لا تُغني عن الاطلاعِ التفصيليِّ وقراءتِه؛ لأنّه يقدِّمُ:

للباحثين عن فهمٍ جديدٍ للقرآنِ ـ قراءةً معاصرةً تُظهرُ كيف يحوِّلُ القرآنُ المقدَّسَ من مفهومٍ غيبيٍّ إلى قوّةٍ مؤثّرةٍ في الواقعِ.

وللمهتمّين بمواجهةِ التشويهِ الدينيِّ في العصرِ الرقميِّ ـ كشفًا لآلياتِ الحربِ على المقدَّسِ عبرَ السخريةِ، وتعليمًا لكيفيّةِ مواجهتِها بذكاءٍ (ليس بالغضبِ فقط).

وللمربِّين والقياداتِ الفكريةِ ـ أدواتٍ لبناءِ وعيٍ شبابيٍّ منيعٍ ضدَّ العبثيةِ، عبرَ التربيةِ على العمقِ الرمزيِّ للدينِ.

وللمنتجين الثقافيين والفنّانين ـ آفاقًا لإبداعِ أعمالٍ تُقدِّمُ المقدَّسَ بطريقةٍ جماليةٍ تنافسُ الخطاباتِ المشوّهةَ.

وأخيرًا، إنّ الكتابَ بالنسبةِ لأيِّ قارئٍ يرفضُ أن يكونَ ضحيةً للصراعِ الرمزيِّ، ليس دفاعًا عن الدينِ فحسبُ، بل دفاعًا عن «حقِّ الإنسانِ في المعنى» أمامَ موجةِ العبثِ الساخرِ.